سجينة الأوهام

قصة بقلم سلافة العامري

جلست رباب الى منضدة رمادية شغلت حيزا من المكان في شرفة مترامية الاطراف ، تابعة لاحد بيوت الطبقة العاشرة من بناء ضخم أنيق بد جميع ابنية « الحازمية » من حيث روعة بنائه ، وجمال تصميمه ، وطل على مشهد من ابدع هبات الانسان الى الطبيعة او الطبيعة الى الانسان . لا استطيع ان اجزم ، كان في نيتها ان تتابع الكتابة في رواية بدأتها منذ مدة كعادتها في مثل هذا الوقت من كل يوم .

أخذت تعبث بخصلات شعرها الليلي ، وتنقر بالقلم على صدغها . وتسرح بناظريها مجتازة المدى الواسع الممتد امامها والذي تتخلله هضاب وتلال وجبال مغروزة قممها في الضباب ، وتتناثر فوقها بيوتات انيقة مغطاة بالقرميد الاحمر والاخضر . ولكن رباب لم تستطع اليوم ان تكتب حرفا واحدا في روايتها مع انها احاطت نفسها بالجو المعتاد، وكل ما في الامر انها انقطعت ليوم واحد عن الكتابة شغلت فيه مع ذويها باستقبال « صالح بك » رئيس وزارة سابق في دولة مجاورة اقعده مرضه عن متابعة عمله في خدمة بلاده ، وهو شخصية فذة نادرة المثال ، ولم تعرف بلاده ندا له في حسن سياسته للامور ، ورقة تدبيره ، وشهد له بمواقف جليلة انقذت بلاده من مشكلات كادت تودي بها ، واستمر في منصبه هذا حتى مرض مما اضطره للاستقالة . فاتخذ لبنان مسكنا له ، وهنا تعرف بأهل رباب ، واتى لزيارتهم ، وكان لقاؤهما الاول وانتهى اليوم وانتهت معه الزيارة ، وها هي الان قد عادت لجوها، وقبعت في ركنها المعهود ، لتتم السير في طريق سلكته ، ولكن الذكريات والخيالات لا تفتأ تراود خاطرها ، وتشتت فكرها ، وتصرفها عما هي فيه من رغبة في الكتابة .

**

لقد سلخت ما يقارب الساعتين من الزمن وهي تحادثه حديثا منفردا ، وهو يجلس هنا امامها في المكان نفسه على الطرف المقابل لها من هذه المنضدة ، وقد اخذا يتجولان عبر حقب التاريخ منذ عرف الانسان التاريخ ، يقتطفان من هنا حادثة ويحللانها ، وينتقيان من هناك شخصية ويقارنانها ، ثم اخذا يجوزان رحاب الاداب والعلوم والفلسفة، ويتبادلان الاراء في مختلف هذه المسائل ، ولم ينسيا الاداب الحديثة والفلسفة المعاصرة ، بل خاضا غمارها ، ولمسا الاختلاف الكبير بين رأييهما في كثير من الامور ، كما لمسا اعجاب كل منهما برفيقه ، مع وجود التفاوب الكبير في السن بينهما ، فهو جاوز الستين بينما هي لا تزال في ربيعها العشرين ، ومع ذلك لم تحس به الا وكأنه شاب في نظرته الى الحياة ، وفي عدم تزمته ، وفي موافقته على بعض النظريات الحديثة في السياسة والاجتماع ، بعد ان كانت تظن بابن الستين شجبه لها ، وهجومه عليها.

وقد زاد في حبها لتلك الجلسة نظرات الحسد والغيرة التي رمقتها بها عيون السيدات ومشاعر الاعجاب والتقدير التي زفها اليها الرجال . ومنذ ذلك الوقت لم تخل ثانية من ثواني يومها وغدها من ذكرى لطيفة لكلمة عذبة او لنظرة رائعة انبعثت من عيني الشيخ الجليل. واذا بها تشتط في خيالاتها واوهامها فترى نفسها وقد لقيته مرة اخرى ، والاعجاب يزداد ، والانسجام يوثق اواصر المودة بينهما ، واذا به ينتقل للسكني بجوارها مع زوجته . وتطلب رباب منه ذات يوم ان يكتب مذكراته ، فيسألها المساعدة ، وذلك بتدوين ما يملي عليها . فتسارع الى ذلك بلهفة متناهية ، وشوق بالغ ، اذ انه لن يتيسر لكل شخص ان يساعد رئيس وزارة سابق في كتابة مذكراته السياسية ، فيمتلىء صدرها زهوا واعجابا ، وتتتابع الجلسات واللقاءات ، فهو في كل اصيل يتخذ مكانه من شرفتها ، وعلى طاولتها الخاصة ليماسي ولندون ، وتتمكن اواصر الصداقة بينهما ، ولعلها اواصر الحب والمودة، فقد اثار هذا التصرف من كليهما غيرة زوجة الرئيس ، وهي سيدة عرفت بحدبها على زوجها المريض ، وفرط اعتنائها به ، ووفائها له ، وحرصها الاكيد على ما يحبه ، لذلك عندما لمست التفاته الى تلك الصبية رباب ، ونظرته الزاخرة بالحنان كلما ذكر اسمها او دار حديث عنها ، لعبت في رأسها الظنون ، ودارت بين الناس تحيك القصص ، وتثير الشكوك حول علاقة الشيخ بالصبية ، مما اساء الى سمعتها النقية . وصم اذنيها دوي الهمس ، وهي التي قضت سني صباها حريصة الحرص كله على سمعتها ، فتحكم تصرفها ، وتراعي تقاليد المجتمع ، وتحترم اعرافه، ابمثل هذه السهولة تتهامس الالسن عنها ، وهل علاقتها بالشيخ جاوزت الحدود ؟ هو شيخ مسن ، وهي صبية شابة ، فهو في سن ابيها على الاقل ان لم يكن في سن جدها ، وانصتت الى دبيب احاسيسها ، واستخلصت الحديث منه ، وعرفت انها تحبه ، ولكن لم يكن بينهما الا ما يكون بين الجد وحفيدته ، فلم التهامس ؟ ولم الظنون ؟ لماذا ينكر الناس عليها لحظات هانئة ارضت عنفوانها ، وهي مستكينة الى هذا الشيخ الرئيس ، يملي عليها احداثا حية عاشها ، احداثا لم تقرأ عنها ، ولم يندثر ابطالها في حنايا العدم ، ان بطلها الرئيسي ماثل هنا امامها يحدثها عن سنوات من عمره وعمر بلاده ، يرويها بنفسه ، ويبعث الحياة فيها من روحه .

عندئذ اخذت الدموع تساقط من عينيها ، فقد فوت الناس عليها فرصة الاستمتاع ، فبكت ما شاءت لها الدموع .

**

استفاقت رباب من خيالاتها ، والفرحة تعمر قلبها ، لانها لم تلق هذا الرئيس الا مرة واحدة فريدة ، هي يوم زار ذويها في بيتهم ، وقنعت باللحظات التي قضتها ذلك اليوم مع الرئيس ، ورضيت بأحاديثه الشيقة الموجهة اليها وحدها . وقررت الا تطلب منه كتابة مذكراته ان سنحت لها فرصة لقائه مرة ثانية ، كي لا يجرها ذلك الى ماساقته اليها اوهامها وخيالاتها .

والان عادت نفسها صافية ، وروحها شفافة رائقة ، واذا بالكلمات تنساب على الورق الاسمر ، والافكار تنثال متدفقة ، بعد ان قبست شيئا جديدا لروايتها .

دمشق — سلافة العامري